من أخبار المسافرين (٣٥)

مسافر يهرب من الحجّاج

كان ابن نمير الثقفي أحد الشعراء المشهورين، يشبّب بزينب بنت يوسف بن الحكم أخت الحجاج، وكان الحجاج يتهدّده، ويقول: لولا أن يقول قائل، لقطعت لسانه. فهرب إلى اليمن، ثم ركب بحر عدن، وقال في هربه:

أتتني عن الحجاج والبحر بيننا ... عقارب تسري والعيون هواجعُ
فضقت بها ذرعاً وأجهشت خيفة ... ولم آمن الحجّاج والأمر قاطع
وحلّ بي الخطبُ الذي جاءني به ... سميع فليست تستقرّ الأضالع
فبتّ أدير الأمر والرأي ليلتي ... وقدأخضلت خدّي الدموع الهوامع
فلم أر لي خيراً من الصبر إنه ... أعفّ وأحرى إذ عرتني الفواجع
وما أمنَتْ نفسي الذي خفت شرّه ... ولا طاب لي ما حبّبته المضاجع
إلى أن بدا لي رأس إسبيل طالعاً ... وإسبيل حصن لم تنله الأصابع
فلي عن ثقيف إن هممت بنجوةٍ ... مهامه تعفى بينهنّ الهجارع
وفي الأرض ذات العرض عنك ابن يوسف ... إذا شئت منأى لا أبالك واسع
فإن نلتني حجاج فاشتف جاهداً ... فإن الذي لا يحفظ الله ضائع

قال: فطلبه الحجاج، فلم يقدر عليه، ثم طال على النميري مقامه هارباً، واشتاق إلى وطنه فجاء حتى وقف على رأس الحجاج.

فقال له الحجاج: يا نميري، أنت القائل:

فإن نلتني حجّاج فاشتفِ جاهداً

فقال: بل أنا أقول:

أخاف من الحجاج ما لست خائفاً ... من الأسد العرباض لم يثنه ذعر
أخاف يديه أن تنال مفاصلي ... بأبيض عضبٍ ليس من دونه ستر

وأنا الذي أقول:

فهأنا قد طوّفت شرقاً ومغرباً ... وأبتُ وقد دوّخت كلّ مكان
فلو كانت العنقاء عنك تطير بي ... لخلتك ـ إلاّ أن تصدّ ـ تراني

قال: فتبسم الحجاج، وأمَّنه، وقال: لا تعاود إلى ما تعلم، وخلّى سبيله.

أدباء العالم والسفر

وقفنا على قصائد السفر وأحوال المسافرين عند الأدباء العرب فلعلّه من المناسب أن نشير إشارة سريعة إلى النظرة العالمية للسفر عند بعض الأدباء العالميين.

إن السفر هو السفر في منظور الناس جميعاً من حيث المشقة والمعاناة ومن حيث إنه أمرٌ محبوب وحلمٌ مرغوب عند الإنسان للمعرفة والاكتساب، وطلب الرزق، والنزهة وغير ذلك.

ولكن لكلٍّ نظرة معينة للسفر ومراميه، وإليك بعض ما قاله أدباء عالميون عن السفر.

في الغرب الشاعر الفرنسي «بودلير» يحلم بالسفر، على رصيف مقهى، أو شاطئ ميناء، يسأل المسافرين في لهفة، ويدون سؤاله لهم عما رأوا في هذه المقطوعة الشعرية الجميلة قبل أن ينفذ حلمه بالسفر إلى الشرق:

«أيها المسافرون المثيرو الدهشة.. أية حكايات نبيلة نقرأ في عيونكم العميقة كالبحار.. أرونا علب ذكرياتكم الثرية.. حلي الأعاجيب المصنوعة من النجوم والأثير.. نريد أن نسافر بلا بخار ولا شراع.. فدعوا ذكرياتكم في أطرها.. تنسم من الآفاق.. على أفكارنا الممدودة كالأستار.. لتغمر بالبهجة مضيق سجوننا.. وقولوا: ماذا رأيتم»؟

طاغور شاعر دائب السفر:

أما السفر عند شاعر الهند «طاغور» الذي كان دائب السفر بعد شهرته

العالمية، فيعني أموراً أخرى، لقد كان طاغور رحالة دائم السفر، يتحدى التعب، في رحلته السادسة وحدها زار الشرق الأقصى، وأمريكا الجنوبية، وأوربا ماراً بماليزيا، والصين، واليابان، وبيرو، والأرجنتين، وإيطاليا، في رحلته السابعة، وإثر مرض سابق من إجهاد السفر، زار إيطاليا، وسويسرا، والنمسا، وفرنسا، وإنجلترا، والنرويج، والسويد، والدانيمرك، وألمانيا، وتشيكوسلوفاكيا، وهنغاريا، ويوغوسلافيا، وبلغاريا واليونان، ومصر. . كل ذلك في رحلة واحدة، يلقى فيها الناس مبتسماً، ويلتقي فيها بالناس، ليلقي عليهم شعره، وعن أسفاره هذه كتب يقول، مبرراً إياها.

«أيام أسفاري طويلة، وطريقي بعيد.

خرجت في موكب الشعاع الأول، وجبت العوالم الخالية.

وتركت أشياء مني على ألوف النجوم والكواكب.

ولكن أبعد الطرق أقربها إليك.

على المسافر أن يطرق كل باب. قبل الوقوف على باب نفسه.

وعليه أن يهيم في مسرح العوالم الخارجية قبل أن يهتدي إلى قدس أقداسه.

عيناي كم جابتا في فضاء، قبل أن أغمضهما، وأقول: أنت هنا».

أسفار عديدة من أجل السلام. . والموت!

كان طاغور يسافر لأنه يبشر بفكرة السلام بين الإنسان وأخيه الإنسان، يسافر من أجل هذه الفكرة، رحلته الثامنة، فالتاسعة، فالعاشرة، حتى بعد أن بلغ السبعين من عمره، وعندما استقر به المقام شيخاً فانياً، كان السفر

مايزال يراود نفسه، ليوثق علاقة خلقية ودية بين الشعوب، بل ويراود نفسه للرحيل عن الدنيا:

«إن نفسي تلبس اليوم رداء المسافر وتهيم، يلح عليها ظمأ ثائر.

فهي متلهفة إلى الاندفاع في الطريق.

إنه المسافر الأبدي، في بطاح الأرض، يدرس أوضاع الشعوب، باحثاً عن نقاط تلاقيها، لا يهدأ، ولا يطمئن.

إنه غريب يحن إلى موطن غير هذا الوطن، يشعر فيه بأمن يستمر.

أغوص في أعماق الأشكال، لعلي أصيب اللؤلؤة الفريدة، العارية من كل شيء.

تركت السفر من مرفأ إلى مرفأ، على زورق تصنعه الأنواء.

لقد مضى زمن كنت ألهو به في مصارعة الموج.

إني أصبو الآن إلى الموت، في جوار من لا يموت.

في ردهة الاستقبال، على شفير هاوية، ليس لعمقها غور، ولا لموسيقاها لحن، سأتناول معزف حياتي:

أيا أيها اللحن الأبدي، سأوقعك على معزفي»

ويرى طاغور أيام الحياة الباقية له على الأرض، أيام سفر، ككل أيام الحياة، فيهتف لمن هو نور خالد:

«إني كباقة ضائعة، في سماء الخريف، فمتى يا شمس السناء الخالد، يذيب لمسك ضبابي، إني لأحسب شهور سفري، أعواماً تفصلني عنك».

السفرة الطويلة.. والأخيرة!

وقبيل اللحظة الأخيرة بدأ طاغور سفرته الطويلة والأبدية. فهمس:

«أزفت ساعة الرحيل . .
إني أسافر فارغ اليدين .
طافح القلب بالأمل .
الطير يحلق في الفضاء .
لا ليذهب في تحليقه إلى الخلاء .
بل ليرجع ثانية إلى أرضه العظمى»

ذلك كان معنى السفر وغايته عند «طاغور» في البدء، وفي النهاية، لكنه عند الشاعر اليوناني «كافافيس» كان ذا معنى آخر

السفر هدف لذات السفر :

في الأساطير اليونانية، كان البطل الإغريقي الأسطوري «أوليس» يتوق للعودة إلى «إيثاكا» مدينته ومسقط رأسه، ووطن زوجته «بنيلوبي» وولده، لكنه كتب عليه أن يظل سنين عديدة يضرب في تيه البحر الأبيض بسفينته .

«إذا ما شددت الرحال إلى «إيثاكا» فلتتمن أن يكون الطريق طويلاً، حافلاً بالمغامرات مليئاً بالمعارف . لا تخف الغيلان والمردة، وإله البحر الغاضب ـ كما يزعم ـ فإنك لن تلقاها في طريقك . مادام فكرك سامياً، والعاطفة خالصة، تقود روحك ومقصدك فلن تقابلن الغيلان والمردة، وإله البحر الغاضب، ما لم تكن قد جلبتها معك في أعماقك، وما لم تكن روحك قد أقامت أمامك .

تمن أن يكون الطريق طويلاً، وأصبحة الصيف كثيرة، تدخل فيها فرحاً مبتهجاً، إلى موانىء تراها لأول مرة .

توقف عند أسواق سورية، واحصل على البضائع الجيدة، أصداف ومرجان وكهرمان، وأبنوس وعطور متعددة، من كل نوع، وعلى الأخص من العطور، خذ قدر ما تستطيع.

واذهب إلى مدائن مصرية كثيرة لتتعلم، وتتعلم من الجهابذة.

لتكن «إيثاكا» في فكرك دائماً، والوصول إليها هو مقصدك، ولكن لا تتعجل في سيرك، الأفضل أن يدوم السفر سنين عديدة، وأن تصل إلى الجزيرة عجوزاً غنياً، بما كسبته في الطريق.

لا تتوقع أن تعطيك إيثاكا ثراءً، لقد منحتك إيثاكا الرحلة الجميلة، فما كنت تخرج إلى الطريق لولاها، وليس لديها أن تعطيك أكثر من ذلك.

ولو وجدت إيثاكا فقيرة، فهي لم تخدعك، ومادمت قد صرت على هذا القدر من الحكمة، ولك كل هذه الخبرة، فلابد أنك قد فهمت: ماذا تعني إيثاكا؟ وأي إيثاكا!!»

السفر رمز لكل تغير وتطور:

شاعر يوناني آخر، من اليونان يدعونا إلى أن نبسط الشراع، شراع السفر، السفر الرمز لكل تغير وتطور، في أنفسنا، وفي حياتنا، وفي أرضنا، هذه الدعوة يوجهها الشاعر «أورانيس» لقومه من أبناء اليونان، ولأسرته العالمية، من سائر أبناء الإنسان، تحت هذا العنوان: «متى سنبسط الشراع؟»:

«متى سنبسط الشراع،
لنرحل إلى أرض الشمال؟
متى سنمتطي أمواج البحر؟

آن الأوان، أن نكف عن رؤية الميناء الخامل، الذي لا تتغير صورته أبداً أمامنا.

فليَمحُ اندفاعنا الجديد، جمود حياتنا القديمة، كما تمحو الأمواج آثار الأقدام على الرمال.

ارفعوا الروح عَلَماً يرفرف بأعلى سارية، فليس صحيحاً أننا جئنا إلى عصرنا متأخرين،

لازال بإمكاننا أن نحيا حياة جديدة،

أن نبسط الشراع»!!.

«راجع مجلة العربي عدد ١٨٧ سليمان فياض»

من أخبار المسافرين (٣٦)

حليمة تسافر باليتيم

سافرتْ حليمة السعدية من بني سعد «ثقيف» قاصدة مكة المكرمة ومعها زوجها وابنٌ لها صغير ومجموعة من النساء.

سافرت حليمة ومن معها حينما أجدبت الأرض، وامتنع القطر، وعُظمتْ الفاقة،، واشتدت الحاجة سافرن يتلمَّسْن الرُّضعاء، حيث كانت تلك عادة مشهورة، وسنةً متبعة عند أهل مكة والأغنياء منهم على وجه الخصوص، كانوا يبعثون أبناءهم إلى البادية لترتاح الأم المترفة من تعب الرضاعة والتربية ولأمرٍ أهم من ذلك وهو تعليمهم وتأديبهم، وتدريبهم على الفصاحة والشجاعة ومكارم الأخلاق، وغير ذلك من الأهداف. ويبذلون للمرضعات مكافآت طيبة، وأجرة مجزية.

ولْنترك الحديث الآن لهذه المسافرة التي كانت تتمنى أن تقع يدها على رضيع من أسرة غنية يكون والده موجوداً لتظفر بالأعطيات، وتفوز بالهبات ولكن يقع سهمها على طفلٍ يتيم فتحزن لذلك، فكان ذلك اليتيم مفتاح السعادة لحليمة السعدية، لقد أخذت يتيماً إلاَّ أن هذا اليتيم فيما بعد هزَّ الدنيا، وغيَّر وجه التاريخ، وأذعن له العظماء، وجثا أمامه الأغنياء، وتسابق إليه الوجهاء.

أنت اليتيم ولكنْ فيك ملحمةٌ يذوب في ساحها مليون جبارِ

تقول حليمة:

فخرجت على أتانٍ لي ـ أنثى الحمار ـ قَمْراء معنا شارفٌ لنا، والله

ما تَبِضُّ بقَطرة ـ ما ترشح ـ، وما ننام ليلَنا أجمعَ من صبيِّنا الذي معنا من بكائه من الجوع، ما في ثدييَّ ما يُغْنِيه، وما في شارفنا ما يغذّيه، ولكنّا كنّا نرجو الغيث والفرج. فخرجت على أتاني، فلقد أدَمْتُ بالرّكْب حتى شقَّ ذلك عليهم ضعفاً وعَجَفاً حتى قدمْنا مكّة نلتمس الرُّضَعاء، فما مِنّا امرأةٌ إلاَّ وقد عُرِض عليها رسول الله ﷺ فتأباه إذا قيل لها إنه يتيم، وذلك أنّا إنّما كنّا نرجو المعروفَ من أبي الصبّي، فكنا نقول: يتيم! وما عسى أن تصنع أمُّه وجَدّه! فكنّا نكرهه لذلك. فما بقيت امرأةٌ كانت معي إلاَّ أخذت رضيعاً، غيري. فلمَّا أجْمعنا الانطلاقَ قلت لصاحبي: والله إنِّي لأكرهُ أن أرجع من بين صواحبي ولم آخذْ رضيعاً، والله لأذهبنَّ إلى ذلك اليتيم فلآخذنَّه! قال: لا عليك أن تفعلي، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة!

قالت: فذهبت إليه فأخذته، وما حَمَلَني على أخْذه إلاَّ أنّي لم أجد غيره. فلمَّا أخذتُه رجعتُ به إلى رحلي، فلما وضعته في حجري أقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن؛ فشرب حتى رَوِيَ، وشرب معه أخوه حتى رَوي ثم ناما، وما كنَّا ننام منه قبل ذلك. وقام زوجي إلى شارفنا تلك فإذا إنها لحافل، فحلب منها ما شرب وشربتُ معه حتى انتهينا ريًّا وشبعَاً، فبتنا بخيرِ ليلة!

قالت: يقول صاحبي حين أصبحنا: تَعلَّمي والله يا حليمة، لقد أخذت نَسَمَة مباركة! فقلت: والله إني لأرجو ذلك.

ثم خرجنا وركبت أنا أتاني، وحملته عليها معي، فوالله لَقَطَتْ بالرَّكْب ما يقدِر عليها شيءٌ من حُمُرهم، حتى إنَّ صواحبي ليقلن لي:

يا ابنة أبي ذؤيب، ويْحكِ أربَعي علينا، أليست هذه أتانك التي كنت خرجت عليها؟! فأقول لهن: بلى والله، إنها لهيَ! فيقلن: والله إن لها لشأنا!

ثم قدمنا منازلنا من بلاد بني سعد، وما أعلم أرضاً من أرض الله أجدبَ منها؛ فكانت غنمي تروح عليَّ حين قدمنا به معنا شباعاً لُبَّنا، فنحلُب ونشرب، وما يحلُب إنسانٌ قطرةَ لبن، ولا يجدها في ضرع، حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرُعيانهم: ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعي بنت أبي ذؤيب. فتروحُ أغنامهم جياعاً ما تبضُّ بقطرةِ لبن، وتروح غنمي شباعاً لُبَّنا.

فلم نزلْ نتعرَّف من الله الزيادة والخير حتى مضت سَنَتَاهُ وفَصَلتهُ، وكان يشبُّ شباباً لا يَشِبُّه الغِلمان، فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلاماً جَفْراً ـ الغليظ الشديد ـ، فقدمنا به على أمِّه ونحن أحرصُ شيء على مُكثه فينا؛ لما كُنّا نرى من بركته، فكلَّمنا أمه وقلت لها: لو تركتِ بُنَيّ عندي حتى يَغلُظ، فإني أخاف عليه وباء مكّة. فلم نزلْ بها حتى ردّته معنا.

فرجعنا به، فوالله إنه بعد مقَدمنا به بأشْهُرٍ ومعه أخوه لَفي بَهْم ـ صغار الغنم ـ لنا خلف بيوتنا إذ أتانا أخوه يشتدّ، فقال لي ولأبيه: ذاك أخي القرشيُّ قد أخذه رجلان عليهما ثيابٌ بيض، فأضجعاه فشقّا بطنه، فهما يَسُوطانِه ـ يفريان بعضه ببعض ـ!

فخرجت أنا وأبوه نحوه، فوجدته قائماً مُنتَقِعَاً وجهه، فالتزمتُه والتزمَه أبوه.

فرجعنا به إلى خبائنا وقال لي أبوه: يا حليمة، لقد خشيتُ أن يكون هذا الغلامَ قد أُصيبَ، فألحقِيه بأهله قبل أن يظهرَ ذلك به. فاحتملناه، فقدِمنا به على أمِّه، فقالت: ما أقدَمَكِ به يا ظِئر ـ المرأة ترضع ولد غيرها ـ وقد كنت حريصة عليه وعلى مُكثِهِ عندك؟ فقلت: قد بلغ الله بابني وقضيتُ الذي عليَّ، وتخوّفت الأحداث عليه، فأدّيته إليكِ كما تحبِّين. قالت: ما هذا شأنُكِ فاصدُقيني خبرَك. فلم تدَعني حتى أخبرتُها. قالت: أفتخوّفت عليه الشيطان؟ قلت: نعم. قالت: كلاَّ، والله ما للشَّيطان عليه من سبيل، وإن لبُنَيَّ لشأنا، أفلا أُخبركِ خبرَه؟ قلت: بلى؛ قالت: رأيتُ حين حملتُ به أنه خرج مني نورٌ أضاء قصور بُصرَى من أرض الشام، ثم حملت به فوالله ما رأيتُ من حملٍ قطُّ كان أخفّ عليّ ولا أيسرَ منه، ووقعَ حين ولدتُه وإنه لواضعٌ يديه بالأرض، رافعٌ رأسه إلى السماء. دعيه عنك وانطلقي راشدة.

وقفة مع اليتيم:

بعض أصحاب الرسول ﷺ اشتاقوا إلى معرفة شيء من أخباره فسألوه قائلين: يارسول الله، أخبرنا عن نفسك. قال: نعم. أنا دعوة أبي إبراهيم، وبُشرَى أخي عيسى، ورأت أمّي حين حملت بي أنه خرجَ منها نورٌ أضاء لها قصورَ الشام، واستُرضِعتُ في بني سعد بن بكر.

فبينا أنا مع أخ لي خلفَ بيوتنا نرعى بَهْماً لنا، إذ أتاني رجلانِ عليهما ثيابٌ بيض، بِطستٍ من ذهب مملوءة ثلجاً، ثم أخَذَاني فَشَقَّا بطني، واستخرجا قلبي فشقّاه، فاستخرجا منه عَلَقَةً سوداء فطرحاها، ثم غَسَلا قلبي وبطني بذلك الثلج حتى أنقيَاه، ثم قال أحدهما لصاحبه: زنْه

بعشرة من أمّته. فوزَنني بهم فوزنتُهم، ثم قال: زنه بمائةٍ من أمته. فوزنني بهم فوزنتهم. ثم قال: زنه بألفٍ من أمّته. فوزنني بهم فوزنتهم. فقال: دعه؛ فوالله لو وزنتَه بأُمَّتِه لوَزَنها ﷺ. [انظر لتخريجه: الصحيحة: ١٥٤٥].

قلت:

يكفيك عن كلّ مدحٍ مدحُ خالقه ... واقرأ بربِّك مبدا سورة القلمِ
شَهْمٌ تُشيدُ به الدّنيا برمَّتها ... على المنائر من عُرْبٍ ومن عَجَمِ
أحيا بك الله أرواحاً قد اندثرت ... في تُربة الوهم بين الكأس والصَّنمِ
نفضتَ عنها غبار الذُّلِّ فاتّقدتْ ... وأبدعتْ وَرَوَتْ ما قُلتَ لِلأمَمِ
محـابـرٌ وسِجـلَّاتٌ وأنـديـةٌ ... وأَحْرفٌ وقوافٍ كُنّ في صَمَمِ
فَمنْ أبوبكر قبل الوحي؟ مَنْ عمرٌ؟ ... وَمَنْ عليٌ؟ وَمَنْ عثمان ذوالرحمِ؟
مَنْ خالدٌ؟ مَنْ صلاحُ الدِّين قبلك؟ مَنْ ... مالكٌ؟ ومن النُّعْمَان في القممِ؟
مَن البخاريْ؟ ومَنْ أهل الصحاح؟ ومَنْ ... سفيان؟والشافعيُّ الشّهم ذوالحكمِ
مَن ابن حنبل فينا وابن تَيْميَةٍ؟ ... بَلِ الملايين أهل الفضل والشَّمَمِ
مِنْ نهرك العذب يا خير الورىٰ اغترفوا ... أنت الإمام لأهل الفضل كُلِّهمِ
بَيتٌ من الطين بالقرآن تعمره ... تبّاً لِقصرٍ منيف بات في نَغَمِ
طعامك التمر والخبز الشعير وما ... عيناك تعدو إلى اللذات والنعمِ
تبيت والجوع يلقىٰ فيك بغيته ... إن بات غيرُك عبد الشحْمِ والتُّخَمِ
لمّا أتتكَ «قم الليل» استجبت لها ... العين تغفو وأما القلب لم ينمِ
تُمسي تناجي الذي أَوْلاكَ نعمته ... حتىٰ تَغَلْغَلَتِ الأورامُ في القَدَمِ
أَزيزُصدركَ في جوف الظلام سرىٰ ... ودمعُ عينيك مثل الهاطل العَمِمِ
الليـل تسهـره بـالـوحـي تعمـره ... وشيّبتـك بهـودٍ آيـة «استقـمِ»

تسير وَفْقَ مراد الله في ثقةٍ ... ترعاك عينُ إلٰهٍ حافظٍ حكمِ
فَوّضتَ أمرك لِلدّيان مُصطبراً ... بصدق نفسٍ وعزمٍ غير مُنثلمِ
وَلّىٰ أبوك عن الدنيا ولم تَرَهُ ... وأنت مُرتهنٌ لازلتَ في الرّحِمِ
وماتتِ الأمُّ لَمّا أنْ أَنِسْتَ بها ... ولم تكن حين وَلّتْ بالغَ الحُلُمِ
ومات جَدُّك من بعد الولوع بِهِ ... فكنتَ مِنْ بعدهم في ذروة اليتمِ
فجاء عمُّكَ حصناً تَسْتكنُّ به ... فاختاره الموت والأعداءفي الأجمِ
تُرمىٰ وتُؤذىٰ بأصناف العذاب فما ... رُئيتَ في ثوبِ جَبّارٍ ومُنْتقمِ
حتى على كَتفَيكَ الطاهرين رَمَوا ... سَلا الجزور بِكفِّ المشرك القَزَمِ
أَمّا خديجةُ من أعطتكَ بَهْجتَها ... وألبستْكَ رداء العطفِ والكرمِ
وَلّتْ إلىٰ جَنَّةِ الباري ورحمته ... فَأَسْلمتْكَ لِجُرحٍ غير مُلتئمِ
والقلب أُفْعمَ من حبٍّ لعائشةٍ ... ما أعظم الخطب فالعرض الشريف رُمِي
وَشُجَّ وجهك ثم الجيش في أحدٍ ... يعود ما بين مقتولٍ ومنهزم
لما رُزقتَ بإبراهيم وامتلأتْ ... به حياتُك بات الأمرُ كالعدمِ
ورُغْمَ تلك الرّزايا والخطوب وما ... رأيتَ من لوعةٍ كُبرىٰ ومن ألمِ
ما كُنتَ تحمل إلاّ قلب مُحتسبٍ ... في عَزْمٍ مُتَّقِدٍ في وَجهِ مُبتَسِمِ
بنيتَ بالصّبر مجداً لا يماثله ... مجدٌ وغَيرك عن نهج الرشاد عَمِ
يا أُمَّةً غفلت عن نهجه وَمضتْ ... تَهيمُ من غير لا هدْي ولا عَلَمِ
تعيش في ظلمات التِّيهِ دَمّرها ... ضَعْفُ الأخوّةِ والإيمانِ والهممِ
يوماً مُشَرِّقةً يوماً مُغَرِّبةً ... تسعىٰ لنيل دواءٍ من ذوي سَقَمِ
لن تَهتدي أمَّةٌ في غير منهجه ... مَهْمَا ارتضت من بديع الرأي والنُّظُمِ

[من قصيدة للمؤلف في الثناء على السراج المنير والبشير النذير ﷺ]

وسائل السفر القديمة

لقد تحدثنا عن وسائل السفر الحديثة بما يكفي ويشفي؛ فقد تعرضنا للحديث عن السفر في السيارة والطائرة والقطار والبحر، وهذه نعم عظيمة أنعم الله بها على الناس، فأصبحوا يتجولون في أنحاء الدنيا، ويسافرون من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، ومن أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب، أو بالعكس، وكل ذلك في مراكب مريحة وعبر وسائل متطورة، وفي أوقات وجيزة، فلم يَعُد هنالك السفر الذي يستمر عدة أشهر ليصل الإنسان إلى مكان بعيد. ولم يعد هنالك قطع الفيافي المخيفة، واجتياز الصحاري الواسعة، والبيد الشاسعة، والتعرض لوهج الظهيرة، وحرارة الشمس، وزمهرير الشتاء، أو المغامرة في الطرق المخيفة الممتلئة بالسباع والوحوش الكاسرة، وقطاع الطرق، كل هذه المخاوف تلاشت، وكل هذه المتاعب توارت، فهل حمدنا الله تعالى على هذه النعم العظيمة.

يا أخي المسافر إذا كان الله تعالى قد امتنَّ على الناس بأنه سخر لهم الخيل والبغال والحمير ليركبوها وأخبرهم أنها نعمة تستحق الشكر، مع ما فيها من التعب والعناء فكيف بنا وقد هيأ لنا كل هذه الوسائل وأنعم علينا بأحسن البدائل؟!!! انظر إلى روعة ما قاله ربنا سبحانه وتعالى ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ

﴿رَّحِيمٌ ۝٧ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨﴾ ثم تأمل السرَّ الرائع واللفتة العظيمة في قوله تعالى في آخر الآيات: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨﴾ وكأنها إشارة للناس في ذلك الزمن بأن هنالك وسائل أخرى سنجعلها للناس فيما بعد لا تعلمونها أنتم، تلك الوسائل هي ما وصل إليه العلم الحديث؛ من طائرات، وقطارات، وسيارات، وبواخر. . . . ولا ندري ماذا يستجد من أمور فيما يستقبل من الزمن، ولكن هذه الوسائل المريحة لها ضريبة كبيرة وذلك في حوادثها المرعبة، وضحاياها الكثيرة، وفي ضعف بنية الإنسان ونشاطه بسبب القعود والكسل وعدم الحركة والمشي. . إلى غير ذلك.

أخي المسافر. . لقد رأيت أنه من المناسب إن لم يكن من الواجب علينا ونحن نتحدث عن السفر والمسافرين ووسائل السفر أن نتعرض لوسائل السفر عند القدماء وكيف اهتموا بها، وأولوها أعظم العناية، فتفننوا في وصفها، وأبدعوا في نعتها، فوصفوها عضواً عضواً، وجزءاً جزءاً وسموها بأسماء ونعتوها بصفات تدهش العقل وتأخذ الألباب، حتى أصبحت تجد لبعض رواحلهم مئات الأسماء، فأي شيء تلك الرواحل، وما هي هاتيك الوسائل؟

أهم وسائل السفر عند القدماء هي الإبل ـ والناقة على وجه الخصوص ـ، فقد حظيت بنصيب كبير، وحظٍّ وفير في أدبهم وأشعارهم، وكذلك الخيل التي كانت أهميتها تبرز في الحروب أكثر منها في السفر وهنالك أيضاً البغال والحمير. . .

وإليك الآن وصفاً لبعض وسائل السفر القديمة.

ولصعوبة هذه القصائد وحاجة كثير من كلماتها إلى الشرح فقد وضعنا حواشي لشرحها.

١ـ امرؤ القيس يصف الفرس:

هذا مقطع من معلقة امرىء القيس يصف فيه فرسه فيقول:

وقد أغتَدي والطّيرُ في وُكُناتِها ... بمُنجَرِدٍ قَيدِ الأوابِدِ هَيْكَلِ (١)

مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقبلٍ مُدْبِرٍ مَعاً ... كجُلمودِ صَخرٍ حطّه السّيلُ من علِ (٢)

كُمَيتٍ يَزِلّ اللِّبْدُ عن حاذِ مَتنِهِ ... كمَا زَلّتِ الصّفواءُ بالمُتَنَزِّلِ (٣)

على العَقْبِ جَيّاشٍ كأنّ اهتزامَهُ ... إذا جاشَ فيهِ حَميُهُ غَليُ مِرْجَلِ (٤)

مِسَحٍّ إذا ماالسّابحاتُ على الوَنَى ... أثَرْنَ غُباراً بالكَديدِ المُركَّلِ (٥)

يَزِلُّ الغُلامُ الخِفُّ عَن صَهَواتِهِ، ... ويُلوي بأثوابِ العَنيفِ المُثَقَّلِ (٦)

دَريرٍ كخُذْرُوفِ الوَليدِ أمَرَّهُ ... تَتابُعُ كَفّيهِ بخَيطٍ مُوَصَّلِ (٧)

---

(١) وكنات: واحدها وكنة: العش. المنجرد: القصير الشعر. الأوابد: الوحوش النافرة. الهيكل: الضخم من كل شيء.

(٢) مكر مفر: سريع الكر والفر. يشبه عدو الفرس في كره وفره وإقباله وإدباره بجلاميد الصخر تحطها السيول.

(٣) كميت: خالط حمرته سواد. يَزِلّ: يسقط. حاذ متنه: وسط ظهره. الصفواء: الصخرة الملساء. المتنزل: المطر ينزل من السماء

(٤) العقب: شدة الحضر، العدو. اهتزامه: تكسر صهيله في صدره. المرجل: القدر.

(٥) المُسِحُّ، من سَحَّ: صَبَّ. أراد أنه يصب العدو صباً. السابحات: الخيول التي تمد أيديها في عدوها. الوني: التعب. الكديد: الأرض الصلبة. المركل: الذي ركلته الأرجل، ضربته.

(٦) الخف: الخفيف. يلوي: يرمي. المثقل: الثقيل.

(٧) درير: كثير الجري. الخذروف: حصاة مثقوبة يديرها لصبي في يديه بخيط وهو منهي عنه. أمره: فتله.

لَـهُ أيْطَـلا ظَبـيٍ وسـاقَـا نَعـامَـةٍ ... وإرخاءُ سِرحانٍ وتَقريبُ تَتْفُلِ[١]

ضَليعٍ إذا استَدبَرْتَهُ سَدّ فَرجَهُ ... بضافٍ فُوَيقَ الأرضِ لَيس بأعزَلِ[٢]

كأنّ سَراتَهُ لدَى البَيتِ قائِماً ... مَداكُ عَرُوس أو صَلايَةُ حَنظَلِ[٣]

كـأنّ دمِـاءَ الهـاديـاتِ بنَحْـرِهِ ... عُصـارَةُ حِنّـاءٍ بشَيْبٍ مُـرَجَّـلِ[٤]

فَعَـنّ لَنـا سِـربٌ كـأنَّ نِعـاجَـهُ ... عَذارَى دَوَارٍ في مُلاءٍ مُذَيَّلِ[٥]

فـأدْبَـرْنَ كـالجِـزْعِ المُفَصَّـلِ بَينَـهُ ... بجيدِ مُعَمٍّ في العَشيرَةِ مُخوَلِ[٦]

فـألْحَقَنَـا بـالهَـاديـاتِ ودُونَـهُ ... جَواحِرُها في صَرّةٍ لمْ تُزَيَّلِ[٧]

فعَـادَى عِـداءً بَيـنَ ثَـورٍ ونَعجَـةٍ ... دراكاً ولمْ يَنْضَحْ بماءٍ فيُغْسَلِ[٨]

فظَل طُهاةُ اللّحمِ ما بَينَ مُنضِجٍ ... صَفيفَ شِواءٍ أو قَديرٍ مُعَجَّلِ[٩]

---

(١) الأيطل: الخاصرة. السرحان: الذئب. الإرخاء: ضرب من عدو الذئب. التنفل: ولد الثعلب. التقريب: وضع الرجلين موضع اليدين في العدو.

(٢) الضليع: العظيم الأضلاع. استدبرته: نظرت إليه من خلف. ضاف: طويل سابغ. الأعزل: الذي يميل ذنبه إلى أحد الشقين.

(٣) السراة: ظهر الفرس. المداك: الحجر الذي يسحق به الطيب. الصلاية: الحجر الأملس الذي يسحق عليه الحنظل.

(٤) الهاديات: المتقدمات من الصيد. مرجل: مسرح.

(٥) عَنّ: عَرَضَ. السَرْب: القطيع. النعاج: البقر. الدوار: حجر كانوا في الجاهلية ينصبونه يطوفون حوله. المذيل: الطويل الأطراف.

(٦) الجزع: الخرز اليماني. المفصل بينه: الذي فصل بين حباته. المعم والمخول: كريم العم والخال.

(٧) الجواحر: المتخلفات. في صرة: في جماعة. لم تزيل: لم تتفرق.

(٨) عادى عداء: والى موالاة بين ثور ونعجة. دراكاً: تباعاً. لم ينضح: لم يعرق.

(٩) اللحم الصفيف: الذي صف على النار ليشوى. قدير: مطبوخ في القدر.

ورُحنا يَكادُ الطَّرْفُ يَقصُرُ دُونَهُ متى ما تَرَقَّ العَينُ فيهِ تَسَفّلِ[١]
فَبـاتَ علَيْـهِ سَـرْجُـهُ ولِجـامُـهُ وبـاتَ بعَيْني قـائِماً غَيرَ مُرْسَلِ[٢]

٢ـ النابغة الذبياني يصف ناقته :

وهذا مقطع من قصيدة من روائع الشعر الجاهلي للنابغة الذبياني يصف فيها ناقته فيقول:

إذا تَغَنّى الحَمامُ الوُرْقُ هَيّجَني، وإنْ تَغَـرّبْـتُ عَنهـا أُمَّ عَمّـارِ
ومَهمَهٍ نازحٍ تَعوي الذّئابُ بهِ، نائي المِياهِ عَنِ الوُرّادِ، مِقْفارِ[٣]
جـاوَزْتُـهُ بعَلَنْـداةٍ مُنـاقِلَـةٍ، وَعْرَ الطّريقِ على الإحزانِ، مِضمارِ[٤]
تَجتابُ أرضاً إلى أرضٍ بذي زَجَلٍ ماضٍ على الهَوْلِ، هادٍ غيرِ مِحيارِ[٥]
إذا الرِّكابُ وَنَتْ عَنها رَكائِبُها، تَشَـذّرَتْ ببَعيـدِ الفَتـرِ خَطّـارِ[٦]
كأنّما الرّحلُ منها فوقَ ذي جُدَدٍ ذَبٌّ الرِّيادِ إلى الأشباحِ نَظّارِ[٧]

---

(١) يصف فرسه فيقول: إن العين تعجز عن استقصاء محاسنه، فترقى لتنظر في أعالي خلقه، ثم تنظر إلى أسافله.
(٢) يريد أنه بات مسرجاً ملجماً بين يديه غير مرسل إلى المرعى.
(٣) المهمه: الوادي الموحش. النازح: البعيد. الوُرّاد، واحده وارد: من ورود الماء. المقفار: المقفر لا أنيس به.
(٤) علنداة: شديدة:. مناقلة: سريعة نقل القوائم، في جري بين العدو الخبب. الإحزان: المشي في الحزن، وهو ما صلب من الأرض. مضمار: كثيرة الضمور.
(٥) تجتاب: تقطع وتجوب. الزجل: الصوت. المحيار: الشديدة الحيرة.
(٦) ونت: ضعفت. تشذرت: نشطت. الفتر: الضعف. خطار: كثير الخطران برجليه على الناقة يحثها على المضي.
(٧) الجدد: الطرائق، الواحدة جدة. وأراد بذي الجدد: الثور الوحشي تعلو ظهره خطوط بيض وحمر. الذب: الدفع. الرياد: التجول. إلى الأشباح نظار: كناية عن=

مُطَـرَّدٌ أُفـرِدَتْ عَـنهُ حَـلائِـلُهُ، من وَحشٍ وَجْرَةَ أو من وحشِ ذي قار[١]
مُجَرَّسٌ، وَحَدٌ، جأبٌ، أطاعَ لهُ نَباتُ غَيْثٍ من الوَسميّ مِبْكار[٢]
سَـراتُـهُ مـا خَـلا لَبَـانَـهُ لَهَـقٌ، وفي القَوائِمِ مثلُ الوَشمِ بالقَارِ[٣]
بـاتَـتْ لَـهُ لَيلَـةٌ شَهْبـاءُ تَسفَعُـهُ بحاصِبٍ ذاتِ إشعانٍ وإمْطارِ[٤]
وبـاتَ ضَيفـاً لأرْطـاةٍ، وألجَـأهُ، مَعَ الظَّلام، إلَيها وابِلٌ سَارِ[٥]
حتى إذا ما انجَلَتْ ظَلماءُ لَيلَتِهِ، وأسفَرَ الصَّبحُ عَنهُ أيَّ إسفارِ[٦]
أهْوَى لهُ قانِصٌ يَسعَى بأكلُبِهِ، عاري الأشاجِعِ، مِن قُنّاصِ أنْمارِ[٧]
مُحالِفُ الصَّيدِ، هبّاشٌ، لهُ لَحَمٌ ما إن علَيهِ ثِيابٌ غَيرُ أطْمارِ[٨]

= المرح، لأن الثور الوحشي يكثر من العدو في الصحراء كلما تراءت له الأشباح.

(١) مطرد: مشرد. أفردت عنه حلائله: أبعدت عنه زوجاته. وجرة وذو قار: موضعان.

(٢) المجرس: الخائف لسماعه جرس الإنسان أي صوته. وحد: وحيد. جأب: صلب شديد، الوسمي: أول المطر، ومثله المبكار. وصف الثور الوحشي بالذعر والقوة.

(٣) سراته: ظهره. لبانه: صدره. لهق: أبيض. القار: الزفت.

(٤) ليلة شهباء: أي تهب فيها ريح باردة. تسفعه: تلفحه وترميه. الحاصب: الريح تقذف بالحصباء أي الحصى. الإشعان، من الشعن: ما تناثر من ورق العشب بعد يبسه.

(٥) الأرطاة، واحدة الأرطي: شجر نوره كنور الخلاف وثمره كالعناب وهي مرة تأكلها الإبل غضة. الوابل: المطر الغزير. الساري: المطر يسح بالليل.

(٦) انجلت: انكشفت. أسفر: أضاء.

(٧) أهوى له: انقض عليه. الأشاجع: أصول الأصابع التي تتصل بعصب ظاهر الكف، وعريها محمود في الرجال. أمنار: قبيلة مشهورة بالصيد.

(٨) هباش: كثير الهبش وهو الكسب. له لحم: كثير اللحم. أطمار الواحد طمر: الثوب الخلق

يَسعَى بغُضْفٍ بَراها فهيَ طاوِيَةٌ، طولُ ارْتِحالٍ بها مِنهُ وتَسيْارِ[١]
حتى إذا الثّورُ، بَعدَ النَّفرِ، أمكَنَهُ، أشلى وأرسَلَ غُضفاً كلُّها ضارِ[٢]
فكَرّ مَحمِيَّةً مِنْ أنْ يَفِرّ كمَا كَرّ المحامي حِفاظاً، خَشيَةَ العارِ[٣]
فشَكّ بالرَّوْق منهُ صَدْرَ أوّلها، شَكَّ المُشاعِبِ أعشاراً بأعشارِ[٤]
ثمّ انثَنَى بعدُ للثّاني، فأقصَدَهُ بذاتِ ثَغرٍ، بَعيدِ القَعرِ، نَعّارِ[٥]
وأثبَتَ الثّالِثَ الباقي بِنافِذَةٍ، مِنْ باسِلٍ، عالمٍ بالطّعنِ، كَرّارِ[٦]
وظَلّ في سَبعَةٍ منها لحِقْنَ بهِ يَكُرّ بالرّوقِ فيها كَرّ إسْوارِ[٧]
حتى إذا ما قضَى منها لبُانَتَهُ، وعادَ فيها بإقبالٍ وإدْبارِ[٨]
انقَضّ كالكَوكَبِ الدُّرّيّ مُنصَلِتاً يَهوي، ويَخلِطُ تَقريباً بإحضارِ[٩]

---

(١) الغضب، الواحد أغضف: اللين الناعم، من الغضف في الأذن أي الاسترخاء. أوراد
(٢) كلاب الصيد، براها: هزلها وأضعفها. طاوية: جائعة. النفر: العدو. أشلى: دعا كلابه للصيد. الضاري: المعتاد الصيد.
(٣) محمية: محافظة. المحامي: المدافع. أراد أن الثور كر ولم يفر.
(٤) الروق: القرن. المشاعب: النجار الذي يشعب القدح ويصده فيصيره عشرة أجزاء. والقدح: السهم.
(٥) أقصده: رماه. بذات ثغر: بطعنة ذات ثغر، أي شق. القمر: الغور. نعّار: له نعير، صوت.
(٦) النافذة: الطعنة الماضية. الباسل: الشجاع.
(٧) الإسوار: الرامي الحاذق.
(٨) لبانته: حاجته.
(٩) الدري: اللامع المتلألىء. منصلتاً: ماضياً في سرعة. التقريب والإحضار: ضربان من السير.

فَذاكَ شبهُ قَلُوصَيّ، إذ أضَرّ بها طولُ السُّرَى والسُّرَى من بعد أسفارِ[١]

٣ـ كعب بن زهير يصف راحلته :

كعب بن زهير في قصيدته «بانت سعاد» التي أنشدها بين يدي رسول الله ﷺ حينما جاءه تائباً معتذراً مسلماً، يصف سفره إلى الرسول ﷺ ويتعرض لوصف راحلته فيسهب في ذلك وينعتها بنعوت عجيبة بديعة يقول:

أمْسَتْ سُعادُ بأرْضٍ لا يُبَلِّغُها إلاَّ العِتاقُ، النّجيباتُ، المراسيلُ[٢]
ولَنْ يُبَلّغَها إلاَّ عُذافِرَةٌ، لها على الأينِ إرْقالٌ وتَبْغِيلُ[٣]
منْ كلّ نضّاخَة الذِّفْرى إذا عرِقتْ عُرْضَتُها طامِسُ الأعْلامِ مجْهُولُ[٤]
تَرْمِي الغُيوبَ بعَيْنَيْ مُفْرَدٍ لَهِقٍ إذا تَوَقّدَتِ الحِزّانُ والمِيلُ[٥]
ضَخْمٌ مُقَلَّدُها، فَعْمٌ مُقَيَّدُها، في خَلقِهاعن بَناتِ الفَحْل، تفضِيلُ[٦]

---

(١) القلوص: الناقة. السرى: السير بالليل.

(٢) العتاق: أي النوق العتاق، أي الكريمة. النجيبات، الواحدة نجيبة: الكريمة، القوية. المراسيل: السهلة اليدين في السير.

(٣) العذافرة: الصلبة القوية. الأين: التعب والإعياء. الإرقال: سير سريع. التبغيل: ضرب من السير يشبه سير البغال.

(٤) نضاخة: سائلة. الذفرى: ما تحت أذن الناقة مما يلي الرقبة. عرضتها: أي اهتمامها، ومقدرتها. طامس: مندرس، مختف. الأعلام، الواحد علم: الإشارة على الطريق.

(٥) المفرد: المنفرد، أراد بن الثور الوحشي. لهق: شديد البياض. الحزان، الواحد حزين: الغليظ من الأرض. الميل: ما تراكم ومال من الرمل، الواحد أميل.

(٦) المقلد: موضع القلادة، العنق. المقيد: موضع القيد، الرسغ، بنات الفحل: النوق.

غَلباءُ، وجْناءُ، عُلكومٌ، مُذكَّرَةٌ، في دَفّها سَعَةٌ، قُدّامُها مِيلُ[١]
وجلدُها مِنْ أَطُومٍ لا يُؤيِّسُهُ طِلْحٌ بضاحيَةِ المَتْنَينِ، مهزُول[٢]
حَرْفٌ أبوها أخُوهَا من مُهَجَّنَة وَعَمُّها خالُها، قَوداءُ، شِمليل[٣]
يمشي القُرادُ عَلَيْها، ثُمّ يُزلِقُهُ مِنها لَبانٌ، وأقرابٌ زَهالِيلُ[٤]
عيرانةٌ قُذِفَتْ بالنحض عن عُرُضٍ مِرْفَقُها عن ضُلوعِ الزَّور مَفتول[٥]
كأنما فاتَ عينيها ومَذْبَحَها مِنْ خَطْمِها ومنَ اللَّحْيَينِ بِرْطيل[٦]
تَمرّ مثْلَ عَسيبِ النخْلِ ذا خُصَلٍ في غارزٍ لَمْ تُخوِّنْهُ الأحالِيلُ[٧]
قَنْواءُ في حُرّتَيْها، للبَصِيرِ بها عِتْقٌ مُبينٌ وفي الخدّين تَسْهِيلُ[٨]
تَخْدي على يَسَراتٍ وهي لاهيةٌ ذَوَابِلٍ، وَقعُهُنّ الأرضَ تحلِيل[٩]

---

(١) غلباء: غليظة الرقبة. وجناء: عظيمة الوجنتين. علكوم: ضخمة. مذكرة: تشبه الذكر. الدف: الجنب. قدامها ميل: أي طويلة العنق.

(٢) الأطوم: قيل إنها سلحفاءة بحرية، وقيل سمكة غليظة الجلد. يؤبسه: يؤثر فيه. الطلح: القراد. ضاحية المتنين: ما برز للشمس من ظهرها.

(٣) الحرف: الناقة الضامرة. مهجنة: كريمة. قوداء: طويلة العنق. شمليل: خفيفة.

(٤) القراد: دويبة تتعلق بالبعير وغيره وهي كالقمل للإنسان. اللبان: الصدر. الأقراب: الخواصر، الواحد قرب. الزهاليل: الملساء، الواحد زهلول.

(٥) عيرانة: صلبة كالعير. النحض: اللحم المتكتل. العرض: الجهة. الزور: الصدر.

(٦) فات: تقدم. الخطم: مقدم الأنف. البرطيل: الحديدة الطويلة، والحجر الطويل.

(٧) عسيب النخل: الجريدة، شبه به ذنب الناقة. الغارز: الضرع. تخونه: تنقصه. الأحاليل، الواحد إحليل: مخرج اللبن من الثدي.

(٨) قنواء: في أنفها حدب. حرتاها: أذناها.

(٩) اليسرات: القوائم. ذوابل: يابسة. تحليل: قليل.

سُمْرِ العَجاياتِ يتركنَ الحصَى زِيَماً ... ولا يَقيها رُؤوسَ الأكم تَنْعِيل[١]
يوْماً تظلّ حِدابُ الأرْضِ ترْفعُها ... مِنَ اللَّوامِعِ، تخليطٌ وتَزْيِيل[٢]
كأنّ أوبَ ذراعَيْها، إذا عَرِقَتْ ... وَقَدْ تَلَفّعَ بالقُورِ العَساقِيلُ[٣]
وقال للقَوْمِ حادِيهم، وقد جَعَلَتْ ... وُرْقُ الجَنادبِ يركُضْنَ الحصَى: قيلوا[٤]
شَدَّ النهارِ، ذراعا عيطَلٍ نَصَفٍ، ... قامت فجاوبَها نُكْدٌ مَثَاكِيلُ[٥]
نَوّاحةٍ، رُخوةِ الضَّبْعينِ، ليسَ لها، ... لما نعَى بكْرَها النّاعون معقول[٦]
تَفري اللَّبانَ بكفّيها، ومِدرعُها ... مُشَقَّقٌ عن تَراقِيها، رعابيل[٧]
يَسْعَى الوُشاةُ بجَنْبَيْها، وقوْلُهُم: ... إنّك يا ابنَ أبي سلمى لمَقْتُول[٨]
وقال كلّ خليلٍ كنتُ آمُلُه: ... لا ألهينَّكَ، إنّي عنكَ مشْغُولُ

---

(١) العجايات: عصب قوائم الإبل. زيماً: متفرقاً.

(٢) حداب الأرض: ما أشرف وغلظ منها. التزييل: التفريق. ولعله أراد باللوامع: السراب، أو البرق. وهذا البيت غير موجود في غير روايات.

(٣) أوب ذراعيها: رجع يديها وسرعة حركتها. تلفع: التحف. القور، الواحدة قارة: كل موضع مرتفع. العساقيل، الواحد عسقول: السراب.

(٤) الورق، الواحد أورق: الأخضر إلى السواد. يركضن: يضربن بقوائمهن. قيلوا: استريحوا في القائلة، نصف النهار.

(٥) شد النهار: أي في شد النهار، وقت ارتفاعه. ذراعا عيطل: خبر كان في البيت السابق. العيطل: المرأة الطويلة. النصف: المتوسطة في العمر. النكد، الواحدة نكداء: التي لا يعيش لها ولد. المثاكيل: الثكالى.

(٦) رخوة الضبعين: سريعة حركة الزندين.

(٧) تفري: تشق. اللبان: الصدر. مدرعها: قميصها. رعابيل، الواحد رعبول: قطعة متخرقة.

(٨) بجنبيها: الضمير للناقة.

فقلتُ: خَلّوا سَبيلي، لا أبا لكُمُ ... فكلّ ما قدّرَ الرّحمنُ مفعولُ
كلُّ ابنِ أُنثى، وإن طالتْ سَلامَتُه ... يوْماً على آلةٍ حَدْباءَ مَحمولُ
أُنْبِئْتُ أنَّ رَسول الله أوْعَدَني ... والعفْوُ عنْدَ رَسولِ اللهِ مأمولُ

٤ـ الفرزدق يتحدث عن ناقته:

إليكَ، أميرَ المؤمنينَ، رَمَتْ بنا ... هُمومُ المُنى وَالهَوجَلُ المتعسِّفُ[١]
وَعضُّ زمانٍ، يا ابنَ مروانَ، لم يدع ... منَ المالِ إلاَّمُسحَتاً أو مُجلَّفُ[٢]
وماثِرَةِ الأعضادِ صُهبٌ، كأنّها ... عليهامنَ الأينِ الجِسادُالمدوَّفُ[٣]
نهضنَ بنَا منْ سيفِ رَمل كَهيلةٍ ... وفيها بَقَايا من مِراحٍ، وَعجْرَفُ[٤]
فما وَصَلَتْ حَتى توَاكلَ نَهْزُهَا ... وبَادَتْ ذُراها، والمناسمُ رُعَّفُ[٥]
وحتى مشى الحَادي البَطيءُ يسُوقُها ... لهَا نحَضٌ دَامٍ ودَأيٌ مُجنَّفُ[٦]
وَحتى قتلنا الجهلَ عنها، وغودرَتْ ... إذا ما أُنِيخَتْ، والمدامعِ ذُرَّفُ
إذا ماأُنِيخَتْ قاتَلَتْ عن ظُهورِها ... حَراجيجُ أمْثالُ الأسِنَّةِ شُسَّفُ[٧]
وحتى بَعَثْناها، ومَا في يَدٍ لها ... إذاحُلّ عنْها رِمّةُ القيد مرسَفُ[٨]

---

(١) الهوجل: الدليل. المتعسف: الماشي عى غير هداية.
(٢) المسحت: المال المتلف. المجلف: الذي بقي منه بقية.
(٣) الأين: الإعياء. الجساد: الزعفران. المدوف: المخلوط.
(٤) السيف: الشاطىء استعاره للرمل. كهيلة: موضع. العجرف: النشاط.
(٥) تواكل: اتكل بعضها على بعض. نهزها: سيرها. المناسم: أخفافها. رُعَّفُ: تسيل دماً.
(٦) النحض: اللحم. الدأي: خرز الظهر. المجنف: المنحني.
(٧) الحراجيج، الواحدة حرجوج: الناقة الطويلة. الشسف: الضامرة.
(٨) المرسف، من رسف: مشى مشية المقيد.

إذا ما أريناها الأزمّةَ أقْبلتْ إليْها بِحُرّاتِ الوُجوهِ، تَصَرَّفُ
ذرَعنَ بنا ما بَينَ يَبرينَ عرضَه إلى الشّام يلْقاها رِعانٌ، وَصَفْصَفُ[1]
فأفْنَى مِرَاحَ الذَّاعريّة خوْضُها بنا اللَّيْلَ، إذ نامَ الدَّثُورُ المُلفَّفُ[2]

٥ـ أبو دلامة والبغلة:

ومن باب الطرفة نختم الحديث عن وسائل السفر القديمة بهذه القصيدة الساخرة المضحكة يسخر فيها الشاعر من بغلته التي ما ترك عيباً وصفةً دنيئة إلاَّ ألحقها بها وهي قصيدة طويلة لشاعر الفكاهة والسخرية «أبودلامة» ومنها:

أَبَعْدَ الخيل أركبها ورادا وشقراً في الرّعيل إلى القتالِ
رزقتُ بُغَيلة فيها وكالٌ وخير خصالها فرط الوكالِ
رأيت عيوبها كثرت وغالت ولو أفنيت مجتهداً مقالي
ليحصي منطقي وكلام غيري عُشير خصالها شرّ الخصال
فأهونُ عيبها أني إذا ما نزلت وقلت: امشي لا تبالي
تقوم فما تريم إذا اسْتَتَمَّتْ وترمحني وتأخذ في قتالي
وإني إن ركبت أذيت نفسي بضرب باليمين وبالشمال
وبالرجلين أركضها جميعاً فيالك في الشقاء وفي الكلال
تقطع جلدها جرباً وحكّاً إذا هُزلت وفي غير الهزال
وألطف من دبيب الذر مشياً وَتَنْحِطُ من متابعة السعال

---

(١) رعان، الواحد رعن: أنف الجبل. الصفصف: المستوي من الأرض.
(٢) مراح: نشاط. الذاعرية: نوع من الإبل. الدثور: المتدثر بردائه. يصف هنا شدة البرد.

وتُلقِي سرجها أبداً شماساً ... وتسقط في الوحول وفي الرمال
ويُهْزِلُها الحمام: إذا خطاها ... ويدبر ظهرها مسُّ الجلال
وتضرط أربعين: إذا وقفنا ... على أهل المجالس للسؤال
فَتُخْرِس منطقي وتحول بيني ... وبين كلامهم مما تُوالي
وقد أعيتْ سياستها المكاري ... وبيطاراً يعقِّل بالشكال
حرونٌ حين تركبها لحضرٍ ... جموحٌ حين تعزم للغزال
وذئبٌ حين تدنيها لسرج ... وليثٌ عند خشخشة المخالي
وألف عصا وسوط كيف أمستْ ... ألذ لها من الشرب الزلال
وتصعق من صعاق الديك شهراً ... وتذعر للصفير وللخيال
إذا استعجلتها عثرتْ وبالتْ ... وقامت ساعةً عند المبال
فأما الإعتلاف فأدنِ منها ... من الأتبان أمثال الجبال
وأما القتُّ فَأْتِ بألف وقر ... كأعظم حمل أحمال الجمال
وإن عَطِشتْ فأوردها دجيلاً ... إذا أوردتَّ أو نهري بلال
وكانت قارحاً أيام كسرىً ... وتذكر تُبَّعاً عند الفصال
وقد قَرِحَتْ ولقمانٌ فطيمٌ ... وذو الأكتاف في الحجج الخوالي
وقد دَبَرتْ ونعمانٌ صبيٌّ ... وقبل فصاله تلك الليالى
وقد مرَّتْ بقرنٍ بعد قرن ... وأُخِّر يومها لهلاك مالي
فَأَبْدِلْني بها يارب طرفاً ... يزين جمال مركبه جمالي

[انظر جمهرة الشعراء لأبي زيد القرشي]